اللوحة المنمنمة - حديقة داخلية - للفنان محمد راسم
دراسة تحليلية وفنية

د. محمد خالدي
جامعة تلمسان

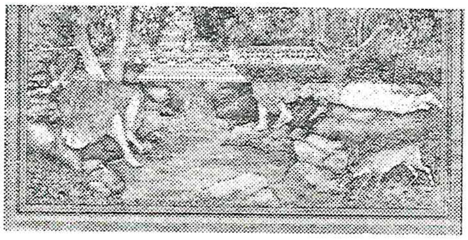

مقدمة:

إنّ تحليل لوحة فنّية ليس بالعمل السّهل، بل يتطلّب منّا الإلمام بمعارف كثيرة في ميدان الصّورة عموما وإدراك وظيفتها، ويرى «جون ديوي» أنّ الصورة تشير إلى طريقة خاصّة للنّظر إلى الأشياء والإحساس بها، وتذوّق العمل الفنّي ككلّ يتطلّب منّا معرفة عناصر العمل الفنّي التي تكون متفاعلة ومتداخلة ضمن الكلّ العامّ للصّورة.[1]

وممّا لا شكّ فيه، أنّ أيّ عمل فنّي تشكيلي لابدّ أن يتميّز بوحدة تربط بين أجزائه المختلفة وتوحّد بينها، وبدونها لا يسمو العمل الفنّي إلى مرتبة وصف التّحف الفنيّة التّشكيلية. والأصل في

وحدة العمل الفنيّ التّشكيلي الإبداعي، هو انبثاق مجموعة من العوامل في سياق منسّق ومنظّم . إنّ اللّوحة هي شيء يتضمّن قيمة وبناء ووجودا، وهي كلّ قائم بذاته، فهي كالكائن الحيّ عبارة عن جهاز له كيانه الذّاتي ومطلبه، يقول جان برتليمي «على أنّ العناصر التي تتكوّن منها اللّوحة متضامنة فيما بينها، يعتمد بعضها على الآخر اعتمادا متبادلا».[2]

إنّ لغة الفنّ التّشكيلي التي تصنع هذه الوحدة، قوامها المادّة والشّكل والموضوع.[3] ويعدّ الشّكل الذي قوامه الخطّ والمساحة والتّجسيم، والضّوء والنّسب والتّوزيع والتّكرار، عنصرا من عناصر العمل الفني.

أمّا الخط فهو أحد عناصر بناء اللّوحة، حيث يحصر المساحة داخل اللوحة. والمساحة هي ذلك الفراغ الذي يكون بين الخطوط، وهي أيضا وسيلة لبناء العمل التشكيلي، وتكون منغّمة لونيا إذا ما لوّنت بألوان متوافقة، وتكرار المساحات يؤدي إلى نظام إيقاعي قويّ، ومثال ذلك ما نجده في الزّخرفة الإسلامية .

وإذا ما تناولنا بالدراسة و التحليل اللوحة المنمنمة للفنان محمد راسم، فإننا نلاحظ أنها تميّزت باستعماله ألوانا مختلفة ومتباينة في نفس الوقت. حيث استعمل الألوان الحمراء قرب الألوان الخضراء، والألوان البرتقالية قرب الألوان الزّرقاء، وهذا ما أدى إلى إعطاء تناسق لوني متميّز.

توظيف الالوان:

حرص محمّد راسم على إبراز لون على لون آخر، حيث جعل لونا يطفو على اللّون الآخر، إذ أنه استعمل مثلا اللّون الأزرق بكثافة وجعله يطغى على جميع أنحاء المنمنمة.

كما أخصّ الفنّان التّشكيلي محمّد راسم اللّون الأزرق جانبا مهمّا من أجزاء اللّوحة، حيث وظّفه في تلوين بلاط الحديقة والماء والسّماء وبعض أوراق الأشجار، واستعمله لتلوين جزء من الأحجار وبعض أزهار النباتات، كما وظّفه في تلوين الألبسة، واستعمل لتلوين العناصر التشكيلية الأخرى اللّون الأبيض والبرتقالي والبنّي وغيرها وخاصة اللّون الأخضر، ووزّعها بطريقة محكمة ومعبّرة عن جوّ من الهدوء والسّكينة، وفي هذه التّحفة يعرض على المُشاهد فسحة نظريّة تجعل الذّهن يسترخي وينتعش، وهو يستحضر منظرا من مناظر تاريخنا الحضاري كما تخيّله ورسمه الفنّان محمّد راسم «إنّ الألوان الخضراء والزّرقاء تهدّئ النّفس وتريح الأعصاب ...» [4] ، والإفراط في استعمال لون وجعله يطغى على الألوان الأخرى، كما هو مجسّد في هذه التّحفة، حيث اللّون الأخضر والأزرق هما سيّدا المنظر، يدفعنا إلى القول أن الرسّام محمّد راسم كان متأثّرا بفنّ المنمنمات الفارسي، إذ أنّه من مميّزات المنمنمات الفارسية هو الإفراط أو المبالغة إن صحّ التّعبير في استعمال لون مقارنة

بالألوان الأخرى وجعله يطغى على كلّ جوانب اللّوحة.

ونلاحظ أنّ الفنّان اعتمد مبدأ الاستحالة في هذه اللّوحة، كما وظّف اللّون الذّهبي المائل إلى النّحاسي ليشكّل به السّماء، وفي هذا دلالة على أفق معكّر وهو يقصد ويرمز إلى الاستعمار، ورسم تلك السّحابة التي تظهر من بعيد ولوّنها بالرّمادي والأزرق، وبالقرب منها شكل حمامات بيضاء في وضعية الطّيران، وهي تحمل أمل الحياة المفعمة بالأمن والسّلام وما يصبو إليه من ظروف أفضل.

ثمّ وظّف الغزال وأعطاه موقعا بالقرب من الفتيات للتّعبير عن الجمال والبهجة والفرحة، مُظهرا تلك الفتيات في جو مرح بهيج، وكأنّ الغزال لا يخافهنّ وهو يدنو من الماء للشّراب في طمأنينة، وهذه صورة من الصّور المعبّرة عن السّلام.

تعتبر هذه اللّوحة المنمنمة من الرّسائل القويّة المتعدّدة المعاني التي أنجزها الفنّان محمّد راسم. فالتطوّر العام لهذا المنظر المتمثّل في مداعبة النّساء للماء وسط المشاهد الظّلية، والسّماء بلون مستحيل، تجعلك تحسّ وتشعر أنّك أمام جوّ بهيج يتمثّل في المنظر الجزئي الخاص الذي يتشكل من الغزال والماء والأزهار وسط مشهد كثيف الظّل، ولون سماء غير عادي يعبّر عن جوّ عام يؤطّر ويشمل كامل اللّوحة، وهذا يعني أن الجوّ والمحيط العام السّائد في ذلك الوقت لم يكن ينعم فيه المجتمع الجزائري بالحريّة، بل كان يعيش تحت نير الاستعمار الفرنسي، وهذا ما دفع بالفنّان إلى استعمال تلك العناصر التّشكيلية المعبّرة والموحيّة.

ويختلف أسلوب محمد راسم في هذه اللوحة المنمنمة عن أسلوب المنمنمات الإسلامية القديمة من حيث المنظور، فبينما في المدارس الإسلامية لا يهتمّ به بتاتا ، فإن محمد راسم يوليه العناية الكبيرة.[5]

وإذا تمعّنا في هذه التّحفة المنمنمة، وحاولنا إلقاء الضّوء عليها بالدّراسة من جانب الألوان التي وظّفت واستعملت فيها، نخلص إلى أنّ الفنّان قد استعمل الألوان المتوافقة، وكذلك الألوان المتباينة في نفس الوقت وعلى نفس اللّوحة، فحين إلقاء النّظر عليها أي اللّوحة تحسّ وتشعر بالتّوافق اللّوني، وهذا نظرا لاستعماله لتلك المجموعة من الألوان المتوافقة، والتي تتجاور وتتآلف ويجمع بينها لون مشترك، فنلاحظ مثلا: اللّون الأصفر بجانب الأخضر ثم الأزرق ثم البني، وهذا ما أعطى اللّوحة ترتيبا على مستوى ألوانها المشكّلة لها. كما أنّه حرص على أن يكون التدرّج في الألوان سمة من سمات هذه اللّوحة، خاصّة وأنّه تكثر بها مناظر الظّل التي تفرض استعمال التدرّج.

كما نلاحظ أنّه استعمل الألوان المتباينة. وهو عكس التّوافق ولكن بنسب قليلة، حيث أنّه استعمل اللّون الأصفر في تلوين لباس أحد النّسوة، وقابله بلون أزرق فاتح في لون لباس فتاة أخرى

وأزرق قاتم مع البنّي في لباس امرأة ثالثة، وتجاور هذه الألوان المتباينة يزيد من درجة اختلافها، حيث أن اللّون الأصفر زاد اصفرارا بتوظيفه إلى جانب اللّون الأزرق والبني والعكس صحيح.

اعتمد الفنّان في تلوين الدّرج الذي يتوسّط المنظر الأمامي والمتمثّل في أربع نساء والبناية التي هي في الخلف على اللّونين الأبيض والأزرق، وقد نشعر أنّه استعمل عن قصد تجاور هذين اللّونين، وهذا حتىّ يعطي اللّون الأزرق أكثر قيمة. ذلك ما يؤكّده صالح حسين قاسم: «إنّ الأبيض إذا تجاور مع لون آخر فإنّه يزيد من قيمته، وأنّ الأسود إذا جاور لونا غيره يخفّض من قيمته...»[6]

أمّا عن استعماله للألوان الباردة كاللّون الأزرق والقريبة منه كالأخضر الممزوج بالأزرق والبنفسجي وقد سمّيت بالألوان الباردة لأنّها تتّفق مع لون السّماء والماء والثّلج وهما مبعث البرودة.[7]

وهنا نتساءل عن سبب توظيف هاته الألوان الباردة التي لها صفة الانكماش والتقلّص، كما أنّه لها تأثيرات نفسية مختلفة تؤثّر على كيانها المادي، ويبدو أنّ الفنّان يعرف كلّ المعرفة تلك التّأثيرات، ولهذا فقد استطاع مراعاتها في لوحته الفنيّة .

ونلاحظ أنّ الفنّان عمل على تعميم تلك الألوان الباردة على مختلف أنحاء أو أجزاء منمنمته، وهذا لإعطائها أكثر إحساس بالعمق والتأمّل في جوهرها، والولوج في أسرارها المليئة بمعاني الجمال والتحرّر والطّوق إلى مستقبل أفضل رغم المعاناة من وطأة الاستعمار واستبداده.

ووظّف كذلك اللّون الأصفر وجسّده على لباس امرأة، وله في ذلك دلالة في هذه المنمنمة، والمقصود منه أن يجعل من صورة تلك المرأة والنّساء الأخريات أكثر تقدّما بالنّسبة للألوان الباردة التي تطغى على اللّوحة، وذلك بسبب إشعاعها وإشراقها وانتشارها.

حاول محمّد راسم أن يظهر ويبيّن من خلال منمنمته هذه «حديقة داخلية» ذلك الاحتفال بالألوان، وأن يجمع بين الحرارة والدّفء والحبّ الملتهب والقوّة والنّشاط من خلال توظيفه للّون الأحمر الممثّل في الأزهار. واللّون الأزرق المجسّد على لباس المرأة ولون البلاط والماء المعبّر عن الهدوء والطّمأنينة التي تسود أجواء الحديقة.

واستعمل كذلك اللّون الأصفر، حيث نراه على لباس المرأة الموجودة يمين الصّورة، وجعل منه أيضا لونا لما يظهر من أجساد النّساء، واختاره أن يكون لونا جزئيّا لذلك الطّائر الموجود على الشّجرة اليسرى، كما اختار اللّون الأصفر لتزيين واجهة البناية وبعض أزهار الحديقة.

إنّنا نعلم أنّ اللّون الأصفر يرتبط ارتباطا شديدا بالشّمس والضّوء، ولكن في هذه التحفة التي نحن بصدد دراستها، لا نرى أثرا للشّمس وذلك من خلال الأفق الغائم والمنظر الظّلي تحت الأشجار، فماذا يريد إذن أن يظهر الفنّان من خلال هذه المنمنمة؟

إنّ توظيف اللّون الأصفر في هذه التّحفة المنمنمة الهدف منه إعطاء أكثر إشراق وأكبر وضوح للرّسم المقصود إظهاره، ونراه موزّعا بإحكام على جميع أجزاء اللّوحة مستقلاً بلونه وممزوجا مع الأخضر في بعض عناصر الرّسم.

إنّ وضع اللّون الأصفر على خلفية خضراء وبالرّغم من توافقهما إلاّ أنّ الاختلاف يبقى واضحا بينهما. وقد وفّق محمّد راسم وإلى حدّ بعيد في الاختيار والتّرتيب والتدرّج في توظيف الألوان من الأصفر الفاتح (لون لباس المرأة ولون بشرة النّساء ولون العصفور وبعض الأزهار) إلى الأخضر الغامق، وهذا هو الانسجام كما هو متعارف ومتفّق عليه.

إنّ استعمال اللّون الأصفر وبنسب مدروسة وقليلة مقارنة مع اللّون الأخضر الذي ينتشر على كامل أجزاء المنمنمة يساعد على الخداع البصري، أو نقول يساعد على تجسيد ظاهرة الانتشار البصري، وهي أنّ اللّون الأصفر على أرضية خضراء، تبدو أكبر من مساحتها الحقيقية، لأن هذه المساحة الصّفراء تضيء الأرضية فتبدو أكثر من مساحتها الحقيقية، وتبدو الأرضية الخضراء الغامقة كأنها تتناقص.

أمّا من حيث التكوين ، فهذه اللوحة المنمنمة تتكون من رسم الموضوع بأسلوب تعبيري دقيق ويؤطر الصورة بإطار بديع من الزخارف الجميلة الدقيقة.[8]

إنّ هذه اللّوحة المنمنمة تعتبر عملا فنيّا معتبرا ورائعا ضمّنه الفنّان محمّد راسم عدّة رسائل.

أهدافها:

تاريخية: أراد الفنان التشكيلي محمد راسم من خلال هذه اللوحة المنمنمة أن يفتح نافذة على تاريخ الجزائر الأصيل والعريق من خلال إظهار ذلك المظهر الجمالي المفعم بالسعادة والهناء والذي كان يسود المجتمع الجزائري سالفا، فأراد أن يصور الحياة الهنيئة التي كان الشعب الجزائري يحياها قبل أن يطأ الاستعمار الفرنسي أرضه ورسالة يتركها للأجيال اللاحقة.[9]

ثمّ إنّه مثّل عهد من تاريخ الجزائر الحافل بالمشاهد التي تعبّر عن الأصالة والتفوّق والتميّز، ويظهر ذلك من خلال الهندسة المعمارية والصور الحضارية التي تطبع المنظر ككلّ.

ثورية: ويظهر ذلك من خلال إعطاء السّماء لونا مستحيلا تمثّل في اللّون الذّهبي المائل إلى النّحاسي ومثّل به الجوّ السائد آنذاك والذي كان فيه الاستعمار الفرنسي يتحكّم في كلّ شيء، وجعل السّحابة الملوّنة بالأبيض والرّمادي والأزرق معبّرة عن الأمن والسّلام والحرّية، وكأنّها تقاوم وتريد أن تحجب لون السّماء. فتضمنت هذه اللوحة أفكارا ثورية وكانت عبارة عن صورة موحية.[10]

السّلام : ويتجلّى ذلك من خلال توظيفه للحمام وتلوينه باللّون الأبيض، وهو في ذلك

يرمز إلى السّلام والحرّية.

حضارية: وتتمثّل في تآلف تلك الحسناوات من خلال طريقة لباسهنّ وحسن مظهرهنّ ومداعبتهنّ للماء وسط حديقة داخلية بإحدى البنايات الفخمة.

جمالية : وتتمثّل في كلّ العناصر المشكّلة للّوحة ومن الألوان الزّاهية التي عولجت بها. وكذلك إلى صورة الغزال الذي يرمز إلى الجمال، كلّ هذا في منظر لطيف أنثويّ جميل جدا.

خلاصة:

ومجمل القول، إنّ الفنّ التّشكيلي العربي الإسلامي من خلال هذه اللوحة موضوع دراستنا له القدرة على الاستجابة لمتطلّبات ومسايرة الظروف، وإذا أمعنّا النظر في هذه المنمنمة، نرى أنّ الفنان محمد راسم قد حاول إعادة بناء ذلك الفنّ العربيّ والإسلامي المتأصّل، وهذا عن طريق بناء الذّات الاجتماعية وسط المجتمع الجزائري، وإظهار هويّته الحقيقيّة مع طموحه إلى أن يكون الفنّ التّشكيلي وسيلة تصل الإنسان الجزائري بتاريخه وقضيّته.

ونجده كذلك أنه أراد التمرّد والثّورة على الأساليب والمدارس الغربية، التي جلبها الفنّانون المستشرقون وعملوا على نشرها وفرضها على الواقع الجزائري، فنرى ذلك التميّز مجسّدا في أعمال الفنّان المختصّ في فنّ المنمنمات محمّد راسم بصفة خاصة، هذا الاخير الذي ورث الرّسم التّشكيلي عن طريق أبيه، حيث اعتبرت عائلته عائلة فنّ، وقد اختصّت في المنمنمات الإسلامية، محافظة بذلك على الطّابع الإسلامي للفنّ التّشكيلي، ومواصلة مسيرة هذا الفنّ الذي قارب الاندثار بالمجتمع الجزائري، نظرا للظّروف الصّعبة التي عاشها تحت وطأة الاستعماري، وما لاقاه من صعوبات وعراقيل، حيث أن المستعمر الفرنسي حارب كلّ شيء كان يرمز إلى الحضارة الإسلامية التي تربط المجتمع بتاريخه. وبفضل تلك المجهودات الجبّارة ازدهر هذا الفنّ ببلادنا، وبفضل ذلك أيضا كانت الجزائر رائدة في هذا الميدان. «إن فنّ المينياتور أو الرّسم التّصغيري «المنمنمات» أو فنّ التّصوير المسندي من الفنون التّشكيلية المزدهرة في بلادنا، وتكاد الجزائر تنفرد بالاهتمام بهذا الفنّ عن غيرها من البلاد العربية...» [11]

ونرى أن الفنان محمد راسم من خلال هذه اللوحة أراد تعليم ونشر القيّم الفنّية الجماليّة والإنسانية التي تميّز الفنّ العربي والإسلامي، وإظهار أنّه مرتبط بسياق فكري، وتحكمه عقيدة واضحة ودين سماوي حنيف ومميّز، فحاول على أساس ذلك، أن يجعل من عمله عملا فنيّا معاصرا، يستجيب لكل ما هو إنساني في الفنّ، ويتجاوز التّأثيرات الأجنبيّة، ويتجنّب النّقل والتّقليد، والتّعامل مع الفنّ وإظهاره في صورة مطابقة لمقاييس وعناصر جمالية تحترم تعاليم الدّين الإسلامي وتقاليد المجتمع الجزائري

الهوامش:

1 1 - جون ديوي. الفن خبرة. ترجمة زكريا إبراهيم. دار النهضة العربية القاهرة. سنة 1963.ص 18 [1]

- بحث في علم الجمال – جان برتليمي – دارالنهضة – مصر 1970 ص 239 [2]

- بسيوني محمود – أسرار الفن التشكيلي – عالم الكتب – القاهرة ط 2 1994 ص 19 [3]

- عبد كيوان. اصول الرسم والتلوين – دارومكتبة الهلال – ط 2000 [4]

- الحركة التشكيلية المعاصرة بالجزائر. ابراهيم مردوخ. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. ص20 [5]

– صالح حسين قاسم. سايكولوجية ادراك اللون والشكل. الدار الوطنية. بغداد 1980 [6]

– خليل محمد الكوفحي. مهارات في الفنون التشكيلية. عالم الكتب الحديث. الاردن. 2006. ص 98 [7]

- الحركة التشكيلية المعاصرة بالجزائر. إبراهيم مردوخ . المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر.ص 21 [8]

– نفس المؤلف السابق. ص 21 [9]

- نفس المؤلف السابق. ص .21 [10]

- الحركة التشكيلية المعاصرة في الوطن العربي، محمد حسين جودي، ط 1، 1998م، دارالمسيرة للنشروالتوزيع والطباعة، عمان. [11]

العلاج النفسي في الدين الاسلامي

أ.بولقدام سميرة
جامعة تلمسان

مفاهيم خاطئة عن الطب النفسي

يعتقد بعض الناس أن الطب النفسي وكذلك علم النفس موروثان غربيان ولا ينتميان إلى الإسلام بصلة فنتج عن ذلك : الاعتقاد بأن المعالج النفسي إنما هو تابع لفرويد يطبق نظرياته دون فكر أو نظر ، وأن المعالج النفسي لا يؤمن بالجوانب الروحية والدينية في العلاج ،وسوف نناقش هذا الأمر من خلال هذه الوقفات[1] : - إن المعالج النفسي المسلم هو فرد من أفراد مجتمعه يدين بما يدينون به ويعتقد ما يعتقدونه، وما دراسته وممارسته للعلاج النفسي إلا محاولة منه في الانتفاع من هذا التخصص في خدمة مجتمعه مؤطراً ذلك كله بضوابط دينه.

-إذا كان فرويد قد أخطأ في مسألة أو أكثر ، سواء كان ذلك عمداً أو جهلاً منه ، فليس معنى ذلك أن نخطّئ كل ما قاله فرويد ، وأن نرفض كلامه جملة وتفصيلاً ، فهذه هي فلسفة العاجز الضعيف في التعامل مع المستجدات ،بل يجب على المسلم الواثق من علمه ودينه أن ينتفع من كل ما حوله فالحكمة ضالته ، وأن يبحث ويدقق النظر في كل ما يعرض له ، لعله يجد فيه ما ينفع به نفسه وأمته.

-إننا حينما نقبل شيئاً من كلام فرويد – مع كونه يهودياً – فليس معنى ذلك أننا نقبل دينه . كما يظن بعض بسطاء التفكير الذين لا يدركون روح الإسلام ويتعاملون بحذر وخوف مفرط لم يأمر به الدين مع أبسط مستجدات الحياة

- ليس من الصواب الاعتقاد بأن ما ورد في الكتاب والسنة يغني عن الاستفادة من خبرات الأمم السابقة التي لا تتعارض مع أصول الدين الإسلامي ، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **لقد هممت أن أنهي عن الغيلة، ولكني نظرت فإذا فارس والروم يغيلون ولا يضروا أولادهم**».من المعلوم أن الحضارة الإغريقية قد ساهمت في تطور العلوم بشكل كبير ، كما لا ينكر أحد أيضاً أن الحضارة الإسلامية في كثير من جوانبها العلمية قد استفادت جداً من حضارة الإغريق ،لكن ما ينبغي التنبيه إليه أنه لم يكن الدين في الحضارة الإغريقية مثلما هو في الحضارة الإسلامية أساساً للعلوم ،ومرجعاً لها ، وليس كما هو في الحضارة الأوربية الحديثة قد تم تنحيته جانباً ،

وإنما كان الدين عند الإغريق علماً من العلوم يدرس مع غيره من العلوم وليست له علاقة أساسية بسلوكيات الفرد وعلاقته بربه أو أن يؤثر على غيره من العلوم ، وإنما هو فقط مجرد علم مثل الرياضيات والطبيعة (الفيزياء) وغيرها.

لذلك فإنك تجد العالم الإغريقي ملماً بعلم الدين جنباً إلى جنب مع غيره من العلوم والذي كان يطلق عليه علم الإلهيات أو الميتافيزيقيا (ما وراء الطبيعة) ،ومن ذلك نستنتج أنه ربما يكون إغراق بعض العلماء المسلمين ممن تنقصهم المناعة العقدية الكافية في دراسة حضارة الإغريق وتشرب نفوس بعضهم لبعض من انحرافاتها الفلسفية يفسر لنا وقوع بعضهم في شيء من الأخطاء العقدية.

-أسهم العلماء المسلمون السابقون إسهامات كثيرة هامة في الدراسات النفسانية . لكنها لم تحظ من قبل باهتمام الباحثين، ومؤرخي الدراسات النفسانية ،فالمؤرخون الغربيون يبدؤون عادة بالدراسات النفسانية عند المفكرين اليونانيين وبخاصة أفلاطون وأرسطو ، ثم ينتقلون بعد ذلك مباشرة إلى المفكرين الأوربيين في العصور الوسطى ، ثم في عصر النهضة الأوربية الحديثة ، ويغفلون إغفالاً تاماً ذكر إسهامات العلماء المسلمين في الدراسات النفسانية رغم أنه قد ترجم العديد منها إلى اللغة اللاتينية ، وأثرت تأثيراً كبيراً في آراء المفكرين الأوربيين أثناء العصور الوسطى وحتى بداية عصر النهضة الأوربية الحديثة [2].

لقد كان القرنان السابع والثامن الهجريان من أزهى عصور الطب النفسي في العالم الإسلامي ، ففي هذين القرنين عاش شيخ الإسلام ابن تيمية _(728-661هـ) وتلميذه العلامة ابن القيم-(691-751هـ) –رحمهما الله- اللذان كان لهما موقف محمود ضد انحرافات بعض الفلاسفة العرب ، ونظراً لأن علم النفس والعلاج النفسي حتى ذلك الحين يعدان من فروع الفلسفة ، فإن موقف شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام ابن القيم – رحمهما الله – من علم الفلسفة والفلاسفة قد أحدث بعض التشويش عند بعض الباحثين الذين ظنوا أن ابن تيمية وابن القيم – رحمهما الله – يرفضان علم النفس والعلاج النفسي مع أنهما لم يعرضا لذلك الأمر بأي نقد رغم ازدهار تلك العلوم في تلك الفترة من الزمن ، وإنما كان نقدهما موجهاً لبعض الفلاسفة وأصحاب الشبه والانحرافات ، بل إنه على النقيض من ذلك فشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم يعدان من رواد الدراسات النفسانية في الإسلام ولهما في ذلك العديد من الآراء والنظريات بل والعجيب في الأمر أنه في مقابل ذلك الازدهار المنقطع النظير في العالم الإسلامي فإنه ما زالت بعض دول أوربا في تلك الفترة من الزمن(القرن

الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر الميلادي) تحرق المرضى النفسانيين ، لأنهم –كما يظنون – لا يمكن علاجهم فقد تلبستهم الشياطين بل إنه حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي (الثاني عشر الهجري) فإن المرضى النفسانيين في أوربا يقيدون بالسلاسل في السجون ويبقون فيها مثل الحيوانات حتى تأتي ساعة الممات لاعتقادهم بأن أرواحاً شريرة قد تلبست أرواح المرضى،ولذلك كان التجويع والتعطيش والضرب بالسياط هووسيلة العلاج نظراً لأن الاعتقاد الشائع في ذلك الحين هو أن الأكل يهيج المريض وأن الضرب يهدئه ، كما اعتقد بعضهم أن الصالحين والأتقياء لا يمكن أن تصيبهم الأمراض النفسية ، وذلك لأن الأمراض النفسية – في ظنهم – إنما هي فقط بسبب تسلط الشيطان على ضعاف الإيمان[3] ، وهذا الاعتقاد جاء من أمرين[4]:

الأول : عدم إدراك الناس لمعنى المرض النفسي

الثاني : نظرة الناس للأمراض النفسية على أنها مركب نقص لدلك يجب علينا أن نفرق بين العوارض النفسية والأمراض النفسية .فالعوارض النفسية هي تلك التفاعلات النفسية الطبيعية التي تطرأ على أي فرد منا نتيجة تفاعله مع ظروف الحياة اليومية ، وتستمر لفترات قصيرة ، وقد لا يلاحظها الآخرون ولا تؤثر عادة على كفاءة الفرد وإنتاجيته في الحياة ، كما لا تؤثر على عقله وقدرته في الحكم على الأمور ،وتعد هذه العوارض النفسية جزءاً من طبيعة الإنسان التي خلقه الله بها ، فيبدو عليه الحزن عند حدوث أمرمحزن ، ويدخل في نفسه السروروالبهجة عند حدوث أمرساروهذا أمر مشاهد معلوم لا يحتاج لإثباته دليل ويحدث لكل أحد من الصالحين والطالحين.

أما الأمراض النفسية فأمرها مختلف ، وهي لا تقتصر على ما يسميه الناس بالجنون ، بل إن معنى المرض النفسي معنى واسع يمتد في أبسط أشكاله من اضطراب التوافق البسيط إلى أشد أشكاله تقريباً متمثلاً في مرض الفصام ،كما أنه ليس شرطاً أن تستخدم العقاقيرفي علاج ما يسميه المعالجون النفسيون الأمراض النفسية بل إن منها مالا يحتاج إلى علاج دوائي ، فهي تزول تلقائياً ، وربما لا يحتاج معها المريض سوى طمأنته ، كما يحدث عادة في اضطرابات التوافق البسيطة.

ويعتمد المعالج في التشخيص الاضطراب أوالمرض النفسي – بشكل كبير – على ثلاثة أمور

-1نوع (طبيعة) الأعراض

-2. شدة الأعراض

-3. مدة بقاء هذه الأعراض

خصائص العلاج النفسي الاسلامي.

لا يمتاز العلاج النفسي الإسلامي بالسبق التاريخي وحسب بل يمتاز كذلك بما يلي[5]:

-انه علاج إيماني، أي يعتمد على ترسيخ دعائم الإيمان في نفس الفرد وللإيمان قيمة علاجية عظيمة و قيمة وقائية تجعل المؤمن يشعر بالأمن و الأمان والاطمئنان والاستقرار والهدوء والسكينة والزهد في متاع الدنيا وشهواتها والقناعة و الرضا بقداء الله وقدره.

-انه علاج خلقي، بمعنى خلقي في منهجه أين يحترم كرامة الإنسان ويصونها ويعتمد في الوقاية و الشفاء على بث المبادئ الخلقية والفضائل الحميدة في نفس الفرد، وقد دلت البحوث على وجود ارتباط كبير بين الانحراف الخلقي والانحراف المرضي، فكلاهما يؤدي لظهور الآخر.

-انه علاج امتثالي، بمعنى انه يدعو الفرد للامتثال للقيم و المبادئ و المثل العليا و الاعتراف السائد في المجتمع، و من ثمة يحقق الفرد تكيفا واتحادا و وئاما مع المجتمع الذي يعيش في كنفه. فيرضى عن المجتمع ويرضى المجتمع عنه.

-هو علاج يقدم العون و المساعدة و التأييد و التشجيع للمريض حتى يرضى عن نفسه ويثق بها و يتحرر من مشاعر النقص.

-انه علاج إقناعي، أي يقوم على أساس إقناع المريض عقليا بالحلول المنطقية، و هو بدلك يستخدم تأثير العقل إلى جانب التأثير في إرادة المريض وفي شعوره.

-انه علاج سلوكي يعمل على تعديل سلوك الفرد، دلك لان العبرة بالعمل الحقيقي، ففي إطار الإسلام الدين المعاملة فادا تعدل سلوك الإنسان فآتى الفرائض وتحاشى المعاصي فانه ينجو بعون الله تعالى من الأمراض النفسية خاصة.

-انه علاج شمولي، حيث يتناول شخصية المسلم من كل جوانبها الجسمية والعقلية والروحية و الخلقية والاجتماعية و الاقتصادية و العلمية و الأسرية...الخ، بل و يتناول الفرد حتى قبل أن يولد إلى نهاية رحلة حياته.

-انه علاج وأقي لا يعتمد على الأمور الفلسفية أو الخيالية أو الوهمية[6] .

طريقة العلاج الديني

يضع البعض « العلاج الديني » الذي يقوم على مبادئ روحية سماوية مقابل «العلاج النفسي » الدنيوي الذي يرتكز على السعادة في دار الدنيا بكل جوانبها المادية والأدبية، ويقصد بذلك طرق العلاج التي تقوم على أساليب ومفاهيم وضعها البشر ولو كانت نفسية المصدر والأهداف، لكن الدين يوفر أحيانا الأمن الذي قد لا تستطيع أساليب علم النفس المعاصر أن توفره ، ومع ذلك ففي طرق العلاج النفسي الدنيوي نجد بعض أعلامه يؤمنون بأن الدين عامل هام في إعادة الطمأنينة إلى النفس .فقد أكد كارل يونج أهمية الدين وضرورة إعادة فرص الإيمان والرجاء لدى المريض، وأكد ستيكل أهمية تدعيم الذات الأخلاقية على هذا الأساس، ومن ذلك يصبح العلاج النفسي الديني أسلوب توجيه وإرشاد وتربية وتعليم يقوم على معرفة الفرد لنفسه حسب المبادئ الروحية والأخلاقية العقائدية[7].

يمكن أن يمارس العلاج الديني كل من المعالج النفسي والطبيب النفساني وكذلك المربي وحتى رجل الدين، على شرط أن يكون هؤلاء على دراية بأمر المصاب وهذا الأمر يجري العمل به مثلا في عديد من المصحات النفسية التي تعالج بأوروبا محاولات الانتحار مثل مصحة فيينا المختصة بحالات الطوارئ الانتحارية، ذلك لأن العلاج النفسي الديني ككل العلاجات النفسية بمثابة عملية يشترك فيها المعالج والمريض معا ولمجلل تيسير العلاج الديني على أساس:

-الاعتراف: وهو يتضمن شكوى النفس طالبا للغفران- وكثيرا ما يستعمل الفرد الوسائل الدفاعية اللاشعورية مثل الإنكار والإسقاط والتحويل أو التبرير وغيرها كي يخفف التوتر الذي ربما ينتج عن الشعور بالذنب والخطأ، وعلى المعالج أن يحلل ذلك بكل دراية في الوقت المناسب وبالصيغة المناسبة، لذا فاعتراف المريض يزيل مشاعر الخطيئة والإثم ويخفف من عذاب الضمير فيطهر النفس المضطربة ويعيد إليها طمأنينتها،ولذلك يجب على المعالج مساعدة المريض على الاعتراف بخطاياه وتفريغ ما بنفسه من مشاعر الإثم المهددة. على أن يتقبل المعالج ذلك في حياد، ويتبع الاعتراف الرجوع إلى الحق والفضيلة والتوازن النفسي السليم مع الذات.

-التوبة: وهي تناشد المغفرة وتمثل أمل المخطئ الذي تحرر من ذنوبه فيشعر الفرد بعدها بالتفريغ النفسي والانفراج والتوبة كما يقول الغزالي في إحياء علوم الدين لها أركان ثلاثة: علم وحال

وفعل، فالعلم هو معرفة ضرر الذنب المخالف لأمر الله، والحال هو الشعور بالذنب، والفعل هو ترك الذنب والنزوع نحو فعل الخير،والمعروف أن حجة الإسلام الإمام الغزالي يعتبر من رواد مؤسسي علم النفس الإسلامي ويقول الله عزوجل: **«قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم»** ويقول رسول الله :**«التائب حبيب الرحمن والتائب من الذنب كمن لا ذنب له»**. ومن هنا نفهم مدى أهمية الالتجاء إلى هذه المفاهيم كي يعالج العصابي المسلم من صراعاته والمكتئب من يأسه وتذنيب ذاته وكذلك السيكوباتي من تكرار أعماله العدوانية الشنيعة وذنوبه المتكررة

.-الاستبصار: ومعناه الوصول بالمريض إلى فهم أسباب شقائه ومشكلاته النفسية وإدراك الدوافع التي أدت به إلى حالته المضطربة وفهم ما بنفسه من خير وشر، وتقبل المفاهيم الجديدة مستقبلا بصدر رحب ، ويعني هذا نمو الذات البصيرة. وقال تعالى في هذا الصدد: **«بل الإنسان على نفسه بصيرة»** هذه الطريقة المثلى كثيرا ما تستعمل في عديد من مظاهر العلاجات النفسية المعاصرة بما فيه التحليل النفسي الفرويدي أو طريقة كارل روجرس[8].

-اكتساب اتجاهات وقيم جديدة: من خلال ذلك يتم تقبل الذات وتقبل الآخرين والقدرة على تحمل المسئولية وعلى تكوين علاقات اجتماعية مبنية على الثقة المتبادلة والقدرة على التضحية وخدمة الآخرين، وكذلك اتخاذ أهداف واقعية وإيجابية والحياة مثل القدرة على الصمود والعمل المثمر والإنتاج.هكذا تتم تنقية الضمير (أو الأنا الأعلى) كسلطة داخلية أو رقيب نفسي على السلوك ويتم تطهير النفس وإبعادها عن الرغبات المحرمة والغير أخلاقية والغير اجتماعية ويستقيم سلوك الإنسان بعد أن تتبع السيئات الحسنات فتمحوها وقال تعالى: **«وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين »** وقال:**» يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي»**.

استخدامات العلاج النفسي الديني:

يمكن اليوم حسب ما أكدته لنا التجارب استخدام العلاج النفسي الديني في البلاد العربية والإسلامية، وبصفة خاصة والحالات التي يتضح أن أسبابها وأعراضها تتعلق بالسلوك الديني للمريض ، بالإضافة إلى الهذيانات الدينية نفسها بل في غالب الحالات فإن العلاج الديني يفيد كثيرا في نوبات القلق والوسواس والهستيريا وتوهم المرض أوداء المراق والخواف والرهاب والاضطرابات

الانفعالية، ومشكلات الزواج وكل الصراعات الفتاكة المبنية على التكالب عن، ملذات دار الدنيا أو على الهرب في وضعية اليأس والانهيار النفسي، وخاصة الإدمان على الكحول الذي يحرمه الدين وحالات الاكتئاب والتشاؤم والمسالك الانتحارية المحرمة أيضا بتاتا في القرآن والحديث. وحتى الوضعية السيكوباتية التي هي مشهورة بشدة تأصلها وصعوبة علاجها[9].

خاتمة

الصراعات النفسية في غالبا ما تتمثل في ذلك الشعور المتناقض بين قوى الخير والشر، وبين الغرائز المحرمات، من بالذنب والخطأ الذي كثيرا ما يتسبب في القلق والفزع والعدوان واضطراب الطبع والسلوك .بيد أن أصول الشخصية الأساسية في البيئة الإسلامية لا تزال ترتكز على القيم الحضارية المنبثقة من تعاليم الإسلام لأن هذه القيم تبقى من العناصر الرئيسية الواقية من المرض النفسي والمخففة لوطأته عند حدوثه، وقد أكد الكثير من علماء الإسلام على مفعول تعاليم الدين بقصد ترضية النفس واطمئنانها بواسطة التوبة والاستبصار واكتساب الاتجاهات الجديدة الفاضلة. وأن شخصية المسلم ترتكز على الإيمان بالقضاء والقدر والبر والتقوى، وعلى مسئولية الاختيار وطلب العلم والصدق والتسامح والأمانة والتعاون والقناعة والصبر والاحتمال والقوة والصحة الخ، وكل هذه الخصال تشجع على إنماء الشخصية واكتمالها و إيصالها للسعادة النفسية الشاملة من هنا كله يتجلى مفعول العلاجات التقليدية في البيئة الإسلامية، الأمر الذي يفرض على الأطباء المحدثين أن يأخذوا هذه الطرق بعين الاعتبار ويدرسونها كي تستفيدون منها في ممارستهم الخاصة بتعاليمها وبذلك يحصل التنسيق والتكامل المنشود .

الهوامش

1- كمال مرسي، النفسية في الاسلام، دار النهضة للطباعة والنشر، مصر، 2003 ، ص30-25 .

2- كمال مرسي، المرجع السابق، ص33-32 .

3-وائل ابو هندي، الطب النفسي الاسلامي، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1999 ، ص19-12.

4-عبد المنعم الميلادي، الامراض والاضطرابات النفسية، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، مصر، 2006 ، ص 140-183 .

5-ناهد الخراشي، اثر القران في الامن النفسي، دار النشر الجامعي، بيروت، 2000 ، ص13-12 .

6-ناهد الخرشي، المرجع السابق، ص99-98 .

7-عمر شاهين، الاسلام والصحة النفسية، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2003، ص111 .

8-محمد نجاتي، القران وعلم النفس، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 1999، ص67-63.

9-كمال مرسي، المرجع السابق، ص58-56 .